دراساتٌ أدبيّة:

# إسهامات الروائي الباكستاني نسيم حجازي في إسلامية الأدب: رواية "التراب والدم" نموذجًا

Pakistani Novelist Naseem Hijazi's Contributions in Islamic Literature: Novel "The Dust and Blood" as a Case Study

Sumbangan Karya Pakistan Oleh Nasim Hijazi Terhadap Kesusastera Islam: Novel “Tanah dan Darah” Sebagai Kajian Kes

محمد علي غوري*

**ملخص البحث:**

كان الاتجاه الإسلامي في الأدب ثالث أهم الاتجاهات التي تجاذبت الأدب، وخاصة في مجال القصة والرواية. و كان جل كتاب القصة الأوائل ذوي نكهة إسلامية إصلاحية، ومن هؤلاء نذير أحمد وسرشار وعبد الحليم شرر الذي كان له تأثير كبير في أهم الروائيين الإسلاميين في باكستان، وهو نسيم حجازي الذي تميز كأستاذه بالروايات التاريخية. وهذا النوع من الروايات هو الذي ميز الروائيين الإسلاميين أكثر من أي نوع آخر من الروايات، ومع ذلك كتب نسيم حجازي روايات واقعية ذات مستوى عالمي، ومِن أهم هذه الروايات الواقعية روايته "خاك أور خون" ومعناها: التراب والدم. وهذه الرواية كغيرها من الروايات الباكستانية التي كتبت بعد قيام باكستان عام ١٩٤٧م تناولت موضوع الهجرة الكبرى والمشاكل التي نجمت عنها، فكانت محاولة نسيم حجازي والآخرين لتذكير المسلمين بما فعله الهندوس والسيخ في رجالهم ونسائهم وأطفالهم وشيوخهم، لذا فإن هذه الرواية ممنوعة من التداول في الهند التي لا تفتؤ تحاول القضاء على كل ما له علاقة بالإسلام، وما جريمة هدم المسجد البابري عنا ببعيد! ويقال عن رواية التراب والدم إنها سيرة كاتبها الذاتية، حيث أودعها أفكاره وآراءه ومواقفه من القضايا المختلفة، وقد انطلق في كل ذلك من منطلق إسلامي واضح، فأحيا بها –أي بهذا الرواية– كثيراً من المعاني

* أستاذ مشارك، قسم الدراسات الأدبية، كلية اللغة العربية – الجامعة الإسلامية العالمية – إسلام آباد.

الإسلامية التي كادت تغيب عن الساحة الأدبية اليوم، فهي بحق رواية إسلامية عالمية تستحق الدراسة والتحليل.

**الكلمات المفتاحية**: الأدب الإسلامي– الأدب الأردي – رواية "خاك أور خون – المحتوى – روائع الأدب الإسلامي.

**Abstract:**
The trend of Islamic literature in the third world is the most important trends studied literature, in the area of the story and the novel. Most of novelists in the past were those with an Islamic flavor reform, as Nazir Ahmad, Sarchar, and Abdul Halim Sharar, whom had a significant impact on the most important novelists of the Islamists in Pakistan Nasiim Hijazi, who characterized as his teacher about historical novels. This kind of novels is distinguished novelists Islamists more than any other type of novels. However, Nasiim Hijazi wrote realistic novels in international level, the most important of which is "*Khac or Khun*" (the dust and blood). This novel, like other novels of Pakistan, was written after the establishment of Pakistan in ١٩٤٧ and deals with The Great Migration and the problems that caused it. It was an attempt from Nasiim Hijazi and others to remind Muslims what the Hindus and Sikhs did with the Muslims. This novel was banned from trading in India that was trying to eliminate everything has relation Islamic. The crime of destroying the Babri mosque is not far away from the event. It is said that the novel is as a biography of the author, where he includes his ideas, his views and viewpoints from various issues, where his assumption was from an Islamic perspective, to revive - through this novel - a lot of Islamic meanings which are almost absent from the literary study nowadays . It is truly a global Islamic novel.

**Keywords:** Islamic literature – Urdu literature – Novel "Khak Oor Khoon" – Contents – The beauty of Islamic Literature.

**Abstrak**:
Pendekatan islam merupakan pendekatan ketiga yang penting yang paling mendapat perhatian dalam bidang sastera terutamanya dalam bidang penulisan cerita dan novel. Kebanyakan novel-novel yang terawal telah mendapat nafas baru menerusi pendekatan islam seperti yang yang telah dihasilkan oleh Nazir Ahmad Srchar, Abdul Halim Sharar yang telah memberi kesan yang mendalam kepada penulis-penulis yang beragama islam di Pakistan terutamanya Nasim Hijazi yang terkenal dengan penghasilan novel-novel sejarah. Genre novel berunsurkan sejarah islam Hal ini telah menaikkan nama penulis-penulis islam berbanding genre

yang lain. Oleh itu, kebanyakan karya yang dihasilkan oleh Nasim Hijazi merupakan karya yang realistik bertaraf dunia terutamanya novel “Khac Orr Khan” yang bermaksud “Tanah dan Darah”. Novel ini sama seperti novel-novel lain di Pakistan yang menceritakan tentang kisah penghijrahan secara besar-besaran dan faktor-faktornya selepas penubuhan Pakistan pada tahun ١٩٤٧. Penghasilan novel bergenre sejarah ini adalah satu usaha dari Nasim Hijazi dan seangkatan dengan beliau untuk mengingatkan orang islam tentang apa yang telah dilakukan oleh orang Hindu dan Sikh kepada rakyat Pakistan. Oleh yang demikian, novel ini telah diharamkan oleh kerjaan India daripada diterbitkan malah cuba menghapuskan apa-apa yang berkaitan dengan islam termasuklah merobohkan Masjid Babri. Justeru, novel “Tanan dan Darah” merupakan pengalaman penulis sendiri yang mana beliau telah melontarkan buah fikiran, pendapat dan pendirian beliau terhadap isu-isu yang berbeza dari sudut persepektif islam yang sebenar. Novel ini banyak mengetengahkan nilai-nilai islam yang sudah hampir dilupakan dalam bidang kesusateraan hari ini dan novel islam global ini layak dikaji dan dianalisa.

**Keywords**: Sastera Islam – Sastera Urdu – Karya “Khak Oor Khoon” – Isi kandungan – Keindahan Sastera Islam.

**مقدمة:**

يعرف الأدب الإسلامي بأنه: "التعبير الجميل عن الكون والحياة والإنسان، من خلال تصور الإسلام لهذا الوجود".[١] إن الأدب عبر التصور الإسلامي يرتبط أشد الارتباط بالمجتمع وبمشاكله، ويساير ما يطرأ على المجتمع من تغيير، فعلاقة الأدب الإسلامي بالمجتمع علاقة وطيدة، تستمد خيوطها من التصور الإسلامي العام. وإذا سلمنا بوجود الأدب الإسلامي بوصفه مذهبا أو اتجاها، فلا بد من التسليم بالمسرح الإسلامي والقصة الإسلامية وما إلى ذلك. فالقصة الإسلامية والرواية الإسلامية كسائر الفنون الأدبية وسيلة من وسائل الدعوة إلى الحق، والدفاع عن بيضة الدين، وتزيين الخير وتقبيح الباطل، ولكن يبدو أن الأدباء الإسلاميين ما زالوا مقصرين في هذا المجال، والسبب في ذلك أن بعض الدعاة يسيئ الظن بهذا النوع الأدبي.

الأدب الإسلامي في حقيقته أدب دعوة، فهو من أهم وسائل الدعوة إلى الدين الإسلامي، والتمسك بأهدافه، وإبراز فضائله ومحاسنه. يقول مأمون فريز جرار: "الأدب الإسلامي أدب رسالي، هو جزء من أدوات الدعوة؛ يهدف إلى نشر الرؤية الإسلامية والتصور الإيماني، وإمتاع المؤمنين بفنون الأدب المختلفة من غير إخلال بالضوابط الشرعية. وحتى يحقق هذا الأدب رسالته لا بد أن ينتشر بين الناس جميعاً وليس بين المؤمنين وحدهم؛ لأنه وسيلة إلى نشر الإسلام بأسلوب فني محبب رشيق، وهذا يقتضي

توافر مواصفات فيه تجعله رائجاً مقبولاً لا محصوراً بالمتدينين وحدهم"،[٢] وفضلا عن ذلك فهو من أهم وسائل الدفاع عن بيضة الدين؛ فالأدب الإسلامي إذن أدب دعوة ودفاع، وترغيب وترهيب، وقد شجع عليه النبي (صلى الله عليه وسلم) حين قال: "إن من البيان لسحراً، وإن من الشعر لحكما" (رواه البخاري)، وقال عليه الصلاة والسلام: "ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم" (رواه ابن عبد البر في الاستيعاب)، يلاحظ في هذه الأحاديث ما للكلمة من تأثير، وقد قال صلى الله عليه وسلم: "من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً" (رواه ابن ماجه). وقد استخدم القرآن الكريم الفن القصصي أروع استخدام في مواضع كثيرة منه. والأدب الإسلامي نشاط بشري يمتاح رحيق القرآن والسنة، ويستمد منهما روحهما وهو يدعو ويدافع عنهما.

بدأ اهتمام الدعاة الإسلاميين بالفنون الأدبية وصبغها بالصبغة الإسلامية بعد قيام الحركات الإسلامية إثر سقوط الخلافة العثمانية في عام ١٩٢٤م، وذلك لإعادة أسلمة جميع العلوم والفنون ومجالات الحياة المختلفة. والأدب الإسلامي – في حقيقة الأمر– قديم قدم الأديان السماوية، على الرغم من ظهور المصطلح في منتصف القرن العشرين على أيدي المصلحين والدعاة كرد فعل على تطرف بعض المذاهب الأدبية.[٣]

إن الكلمة الطيبة كالشجرة الطيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، لها أثرها الطيب في النفوس، كما أن للكلمة الخبيثة أثرها السيء في النفوس، فهي تهدم ولا تبني. "إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة، والله يعلم وأنتم لا تعلمون".[٤]

وإذا كانت ثمة لغة يمكن أن توحد المسلمين في شتى البلاد والبقاع فهي بلا شك اللغة العربية، فهي لغة القرآن الكريم ولغة حديث النبي (صلى الله عليه وسلم) ولغة التراث الإسلامي الضخم. وكذلك إذا كان ثمة أدب يمكن أن تجتمع عليه الأمة الإسلامية من المحيط إلى المحيط فهو الأدب الإسلامي؛ لأسباب كثيرة منها أنه يتحدث عن قضايا وموضوعات يعرفها المسلمون جميعاً، وينطلقون في عرضها وحلها من منطلق الدين الإسلامي.

نشأت الرواية في الأدب الأردي في ظل الواقعية، حيث ظهرت كأدب واقعي يبتعد عن الخيال ويحاول بإخلاص علاج المشاكل الاجتماعية، وانتقلت من أدب يقرؤه الخواص إلى أدب يقرؤه العوام؛ لأنها تتحدث عن حياتهم اليومية البسيطة، حيث أصبح الأديب –وهو الروائي هنا– يختار موضوعاته من حياة الناس، وليس من شعوره الخاص.

فالرواية الأردية ومنذ اليوم الأول لنشأتها في هذه المنطقة كانت واقعية اجتماعية؛ أي إصلاحية، فمن البداية كان هدفها الأساسي والأول هو الاصلاح الاجتماعي.[٥]

يعتبر المولوي نذير أحمد (م١٨٣٦-١٩١٢م) من أوائل كتاب الرواية في الأدب الأردي، وقد انطلق هذا الكاتب من الواقعية، وكان هدفه الإصلاح الاجتماعي، ولا سيما في روايته "مرآة العروس" التي نشرت سنة ١٨٦٩م، والتي اختلف في شأنها، هل هي رواية بمفهومها الفني الحديث أو لا؟ وهل هي أول رواية في الأدب الأردي أو لا؟ تنتزعنا هذه الرواية من عالم الخيال إلى عالم الواقع، حيث تعالج المشاكل التي تتعرض لها أسرة من الطبقة المتوسطة في المجتمع، وقد أجاد الكاتب في هذه الرواية تصوير مشاعر الشخصيات وخاصة من النساء، وذلك في أحوالهن المختلفة، ومما يميز هذه الرواية قلة التشبيهات والاستعارات فيها،[٦] الأمر الذي قربها من الواقعية. وللمولوي نذير أحمد روايات أخرى بعضها مقتبس من الروايات الإنجليزية مثل: "بنات النعش" و"توبة النصوح"، وبعضها من نسج خيال وإبداع الكاتب مثل: "محصنات" و"ابن الوقت" و"الأيامى" و"رؤيا صادقة"،[٧] ومع ذلك لم يكن المولوي نذير أحمد متفرغاً للأدب، فله دراسات أخرى في علم تفسير القرآن الكريم، وعلم الصرف، كما ترجم بعض الدراسات في الفقه والشريعة الإسلامية، وفوق ذلك كله كان خطيباً مفوهاً، وفي آخر أيامه قرض الشعر.[٨]

ومن الروائيين الأوائل الكاتب الكبير سرشار، وأهم رواياته "فسانة أزاد" أي قصة أزاد، وأزاد بطل هذه الرواية، وقد نشرت عام ١٨٧٩م، وجمعت هذه الرواية بين الخيال والواقع في مزيج يشبه الشعر، وقد وصف فيها كاتبها مجتمع "لكنهو" الذي نشأ وعاش فيه.[٩] وهناك الكاتب عبد الحليم شرر الذي له قصب السبق في كتابة الروايات الأردية ذات الاتجاه الإصلاحي الديني أو ما يمكن أن نسميه الاتجاه الإسلامي، وأولى رواياته رواية "الملك العزيز ورجينا"، المنشورة عام ١٩٨٨م، وقد تأثر بهذا الأخير كثير من كتّاب الرواية التاريخية، وأهم هؤلاء نسيم حجازي؛ الروائي الذي احتل مكانة عالية في الأدب الأردي وخاصة في مجال الرواية التاريخية الإسلامية، فقد قام بتأليف عدد كبير من الروايات التاريخية، منها قصة مجاهد والمعركة الأخيرة وتحطمَ السيف والصخرة الأخيرة والراحل في الظلام والكنيسة والنار وشاهين، تجلت في هذه الروايات إسهامات هذا الكاتب العظيم في إسلامية الأدب. وسآتي على ذكر روايته التراب والدم وهي موضوع هذا البحث بعد أسطر قليلة بإذن الله تعالى.

والروايات الباكستانية التي كتبت بعد قيام باكستان مباشرة صورت الواقع المرير الذي عاشه المسلمون في تلك البقعة من العالم خير تصوير بكل ما فيه من مآسي يندى لها جبين البشرية، فقد كانت هذه الروايات مليئة بالمآسي كأنها كتبت بمداد من دماء الضحايا والمحور الأساسي الذي تدور فيه هذه الروايات هو الهجرة التاريخية الكبرى؛ هجرة الملايين من المسلمين الذين تعرضوا خلالها للسلب والنهب والقتل ولكل أنواع القهر والإذلال والإهانة، حتى لينتاب المرء العجب، وتستولي عليه الدهشة من هول ما يقرأ من هذه الروايات، وهذا جزء يسير مما حدث في أرض الواقع.

اصطبغت الروايات التي كتبت في المدة التي تلت قيام باكستان باللون الأحمر، وامتلأت بالحديث عن القهر والمآسي والظلم، ظلم الهندوس والسيخ للمسلمين، وكيف كانوا يتلذذون ويستمتعون بقتل الأطفال والشيوخ، وهتك أعراض النساء، ثم قتلهن بوحشية لا توصف، هل سمعتم عن إجبار النساء والفتيات على الخروج عرايا في صفوف في الشوارع والطرقات العامة، ثم قطع أعضائهن بالسيوف وهن يمشين؟! وطعن الرماح بطون الأطفال الصغار بالرماح، ثم رفعها إلى أعلى لتنغرس تلك الرماح القاسية في البطون الطرية الصغيرة، ليس لسبب إلا أنهم أطفال المسلمين، وما حدث غيض من فيض يعجز القلم عن الإحاطة به. أي حقد وأية كراهية تلك التي دفعت هؤلاء المجرمين إلى ارتكاب مثل هذه الجرائم البشعة الفظيعة في حق أبرياء ليس لهم ذنب إلا أن قالوا ربنا الله؟! وقد شهد الإنجليز أنفسهم على هذا العدوان الغاشم، فها هو إيان ستفنز مؤلف كتاب "باكستان البلد القديم الأمة الجديدة" يدلي بشهادته قائلاً: "كان قتل الهندوس والسيخ للمسلمين عاماً ومنظماً ومخططاً له، ولم يرتكب المسلمون مثل هذه الجرائم إلا قليلاً".[١٠]

لنقف على جزء من هذا الظلم عبر رواية "خاك أور خون" أي التراب والدم للكاتب الكبير نسيم حجازي الذي كتب روايات عديدة أغلبها تاريخية. يقال عن هذه الرواية إنها سيرة كاتبها الذاتية، وإن بطلها واسمه سليم هو نسيم حجازي نفسه، وأحداث الرواية وقعت في مدينة "كرداس بور" موطن بطل الرواية سليم وهي مدينة نسيم حجازي نفسه.[١١]

يشير سمير عبد الحميد إبراهيم إلى سبب كتابة هذه الرواية قائلاً: "بعد قيام باكستان وفي السنوات العشر الأولى ذاع صيت روايات الأديب نسيم حجازي التاريخية ... ويحكى أنه بينما كان يكتب روايته "شاهين" –وهي رواية تاريخية– عرف أن أحد عشر شخصاً من أسرته قد استشهدوا أثناء اضطرابات عام ١٩٤٧م، فكان ردّ الفعل لديه: "خاك أور خون"، وهي كما يرى النقاد من أحسن وأفضل ما كتبه نسيم حجازي".[١٢] وهذه الرواية "تحكي قصة المأساة التي تعرض لها المسلمون زمن التقسيم.[١٣] في عام ١٩٤٧م حين بدأت أعظم هجرة بشرية في التاريخ، وحين شهدت منطقة البنجاب ودهلي وأجمير والمراكز الشمالية وحتى محافظة جمون وكشمير بحاراً من الدم البشري تنساب مختلطة مع أمواج الأنهار، حتى فاضت فاختلطت الدماء البشرية مع تراب الأرض، وتشكلت باكستان، وظهرت إلى الوجود بالدماء والدموع".[١٤]

بدأ الكاتب روايته بمقدمة قوية ومؤثرة لخص فيها ما أراد أن يقوله في روايته التي بلغت ستمائة صفحة من الحجم المتوسط، حيث شهدت شجرة عتيقة تطور الحياة في قرية من قرى "كرداس بور"، وكيف سجل الزمن آثاره فيها، وكيف أثرت السنون في أهلها، وكيف شهدت هذه الشجرة طفولة وشباب وشيخوخة الكثيرين من أهل هذه القرية، كما شهدت أفراحهم وأتراحهم. كانت هذه الشجرة

هو المكان الذي يجتمعون فيه. وحين أعلن عن استقلال باكستان عن بريطانيا وانفصالها عن الهند في أغسطس عام ١٩٤٧م كانت هذه الشجرة ومعها مئات الآلاف من الأشجار في قرى البنجاب الشرقي، القسم الذي بقي –ظلماً وعدواناً– مع الهند، تشهد حمامات دماء أولئك المسلمين الذين ترعرعوا تحتها وعاشوا في ظلالها، وأخيراً دفنوا تحتها. وفي نهاية هذه المقدمة المؤثرة يقول نسيم حجازي: آه لو كنت مغنياً، وكنت أستطيع أن أصنع من غصن هذه الشجرة ناياً لكنت ملأت الفضاء الفسيح بآمال أرواح الحائرين الذين يقبعون تحت هذه الشجرة ينتظرون قائد القافلة المجهولة.

قسم الكاتب روايته هذه إلى أربعة أقسام: في القسم الأول وعنوانه "بسمات وضحكات" تحدث فيه عن براءة الأطفال في قرية من قرى "كرداس بور" المعبر البري الوحيد الذي يربط الهند بكشمير، فكان ضمها إلى الهند ضرورياً ليسهل بعد ذلك ضم كشمير إليها. تحدث الكاتب في هذا القسم عن طفولة بطل الرواية واسمه "سليم" وابن عمه مجيد وأطفال آخرين من المسلمين والسيخ والهندوس، وعن اختلاطهم ببعض في المدرسة وفي طرقات القرية وهم يلعبون بعد انتهاء الدراسة، كما تحدث عن حياة الفلاحين وعاداتهم، وكيف كانوا يقضون أوقاتهم في الليل وفي النهار. ورغم أن هذا القسم من الرواية يتحدث عن الأطفال ويمثل البراءة، فإنه لا يفوت الكاتب أن يشير إلى أخلاق السيخ السيئة من شربهم للخمر وعدم مراعاة حقوق الجيران، وذلك تمهيداً لما سيكون من سلوكهم وظلمهم للمسلمين بعد إعلان تقسيم البلاد وانفصال باكستان عن الهند، وفي القسم الثاني من الرواية وعنوانه: "خوف ورعب" تحدث الكاتب عن توطد العلاقة بين بطل الرواية سليم وفتاة اسمها عصمت وأسرتيهما، وتتطور هذه العلاقة في براءة حتى تسري في روحي هذين الشابين كالطيف الخفيف. وتنتهي هذه المرحلة من حياة سليم بسفر أسرة عصمت إلى مدينة "أمرتسر"، وسفر سليم إلى لاهور لاستكمال دراسته العليا، ومع القسم الثالث وعنوانه: "الخط الأحمر" تبدأ مرحلة جديدة من حياة سليم، فبعد التحاقه بالجامعة هناك يمارس هوايته كشاعر رومانسي يعيش في عالم الخيال، يصف الريف وجماله وبساطته، ذلك الريف الذي كانت ذكراه تشد سليم دائماً إليه، إلى أن يلتقي بناصر علي ذلك الطالب النشط في حركة سرية تعمل على المطالبة بإعطاء المسلمين حقوقهم، وذلك عن طريق نشر الوعي الديني والسياسي بين الطلاب، وإيقاظ الأمة من سباتها، فيقتنع سليم بما يدعو إليه ناصر، وتتغير حياته كلية، حيث يدرك خطورة تلك المرحلة التي يمر بها المسلمون في شبه القارة، فينشط في تلك الحركة السرية الداعية إلى قيام باكستان.

وفي الخامس عشر من شهر أغسطس عام ١٩٤٧م أي بعد يوم واحد من قيام باكستان فوجئ المسلمون بضمِّ كثير من المناطق ذات الأغلبية المسلمة إلى الهند ظلماً وعدواناً بتدبير جائر مشترك بين الهندوس والبريطانيين، وقد كان المسلمون في هذه المناطق يظنون أن مدنهم وقراهم سوف تنضم إلى

باكستان، فاطمأنوا إلى بقائهم فيها، فكان نتيجة ذلك أن اغتسلوا بالدماء على أيدي السيخ بإيعاز من الهندوس.

وفي هذه المرحلة نشهد بطولات سليم وثلة من أصحابه ضد السيخ الذين أخذوا المسلمين على حين غرة، وكان من عادتهم أنهم بعد قتل الرجال والأولاد يحكمون إغلاق أبواب البيوت على النساء والأطفال، ثم يشعلون النار فيها، وإمعاناً في الظلم كانوا يلجؤون إلى طرق أخرى تقشعر لها الأبدان، وكان من ضمن من أحرقوهم أسرة سليم نفسه، ولكن تشاء الأقدار أن ينجو سليم ليكون له شأن في مستقبل الأيام.

وفي القسم الرابع والأخير من هذه الرواية وعنوانه: "يا قوم" تستمر بطولات سليم، حيث يساعد سليم وأصحابه كثيراً من المهاجرين على الارتحال من قراهم إلى الأرض الطيبة باكستان.[١٥] ومن الذين ساعدهم سليم وأصحابه أسرة عصمت –تلك الفتاة التي تعلق قلبه بها في طهارة وصفاء– وذلك بطريقة بطولية درامية فيها الكثير من المبالغة. استمر سليم في قتال السيخ وإنقاذ المهاجرين من براثنهم حتى أصيب بجراح أعجزته عن مواصلة الجهاد، فانتقل إلى لاهور للعلاج حيث وجد نفسه في منزل حبيبته عصمت! تحت رعاية أبيها الطبيب، وفي هذا القسم وجه البطل سليم وهو في فراش المرض، خطاباً حماسياً قوياً إلى قومه ينبههم فيها إلى الأخطار المحدقة بهم، ويحاول إيقاظهم من جمودهم الذي هم فيه سادرون، ويزيل الغشاوة عن أعينهم، ليروا الحقائق واضحة، ويدركوا الحقد الدفين الذي يكنه لهم السيخ والهندوس، ويحثهم فيها على المحافظة على البقية الباقية من المسلمين في كشمير وفي البنجاب الشرقية، ويطالبهم بالتحرك قبل فوات الأوان، ولم يفته في هذا الخطاب أن ينتقد الأدباء الذين صرفوا همهم –حتى في هذه اللحظات الحالكات– إلى التغني بالذات، والحديث عن عواطف الحب والهيام، وعن قضايا مستوردة ومصطنعة مثل قضية حقوق العمال وقضية الفقر والجوع في وقت كان المسلمون فيه أحوج إلى من يتحدث عن مشاكلهم وقضاياهم المصيرية، كما أخذ على هؤلاء الأدباء عدم اكتراثهم بأرواح المسلمين التي كانت تزهق، وعدم اهتمامهم بأعراض نسائهم التي كانت تنتهك.

انتهى نسيم حجازي من كتابة هذه الرواية في عام ١٩٤٩م أي بعد قيام باكستان بعامين فقط، فقد كانت أحداث تلك الحقبة ماثلة أمامه لم يستطع السكوت عنها، وأن يغض الطرف عن مظالم الهندوس والسيخ للمسلمين، فكشف القناع في هذه الرواية الخالدة عن حقدهم الدفين على المسلمين، ولذلك فإن هذه الرواية محظورة في الهند بأمر من السلطات الهندية؛ لأنها تكشف القناع عنهم وتبين حقيقة عدائهم للمسلمين، فهم لم ولن يرضوا عن باكستان؛ لأنها قامت باسم الإسلام، وهذا ما كان ولا يزال يقلقهم حتى اليوم. وهذا ما يبرر كل تصرفاتهم ومواقفهم منذ قيام باكستان وحتى يومنا هذا.

نجح المؤلف في تصوير مأساة المسلمين في الهند في تلك الآونة، واستطاع أن يصور الواقع المرير الذي عاشوه في قالب فني جميل، فالقارئ يعيش مع الأحداث في تطورها الرتيب بدءاً من حياة الطفولة البريئة إلى جو المؤامرات الرهيب إلى الشرّ في أقبح صوره، كل ذلك بأسلوب جميل بسيط ومؤثر في النفس إلى أبعد الحدود، وإلى جانب سرد أحداث الرواية كثيراً ما يتدخل الكاتب شارحاً ومفسراً مجرى الأحداث، حتى أحياناً نحس بأننا نقرأ مقالاً سياسياً، ولكنه وبعد أن يسبر أغوار نفوسنا وتطلعاتها يعود بنا إلى مجرى أحداث الرواية، والعودة هنا لها متعتها الخاصة، حيث يكون القارئ متشوقاً لمعرفة ما جرى.

إن رواية "خاك أور خون" رواية واقعية من روائع الأدب الإسلامي على المستوى العالمي سجلت أحداث حقبة عصيبة من حياة المسلمين في شبه القارة الهندية بأسلوب قصصي رائع. استطاع الكاتب عبرها أن يصور لنا حياة القرية بكل ما فيها من بساطة وجمال طبيعي وروحي، صور لنا في البداية حياة الأطفال في القرية وفي مدرستهم التي ليس فيها إلا مدرس واحد، وصور لنا لعبهم في الترع والأنهار وتسلقهم للأشجار والدواب التي توجد عادة في القرى.

نلاحظ اهتمام الكاتب في هذه الرواية بالجواد كثيراً، ربما لأن الحياة في القرى في تلك المدة كانت تعتمد على الحيوان أكثر من غيره، وربما كان ذلك نتيجة الموروث الديني لدى المؤلف، حيث وردت آيات وأحاديث كثيرة تشيد بهذا الحيوان وتعتبره رمزاً للقوة التي يجب أن يتمتع بها المؤمنون، فمثلاً يقول الله عز وجل في كتابه العزيز: **"**وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم**"**،[١٦] ويقول النبي (صلى الله عليه وسلم): "الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة" (رواه الشيخان)، وقد أثر عن عمر بن الخطاب (رضي الله تعالى) عنه قوله: "علموا أولادكم السباحة والرماية وركوب الخيل". فهو بهذا الرمز يذكرهم بماضيهم المجيد، ويحثهم على ربط حاضرهم المزري بماضيهم التليد.

وللشجرة أيضاً مكانة خاصة في هذه القصة التي بدأها كاتبها بخطاب مؤثر وجهه إلى شجرة القرية الشاهدة على أحداث الزمن في تلك البقعة، ونراه يشيد بالشجرة في مواضع أخرى كثيرة، منها قوله: "باكستان هي تلك الشجرة التي رويناها بدمائنا ودموعنا". فهي بشموخها رمز العزة والكرامة، وفي امتداد عمرها إشارة إلى البقاء والخلود، وفي ثمارها دليل على العطاء المستمر دون حد أو مقابل، فالشجرة رمز الحياة ورمز العطاء ورمز الخير في هذه الرواية.

ومما يلاحظ على شخصيات الرواية أن الكاتب لم يقف على ملامحها الخارجية كما يفعل الواقعيون الذين يكتبون الروايات وفقاً للمذاهب الأدبية الغربية الحديثة، فنسيم حجازي في هذه الرواية لا يذكر صفات شخصياته أو أشكالها، وإنما يكتفي بذكر عاداتها وأخلاقها وصفاتها الداخلية، حتى أبطال القصة وهي الشخصيات الرئيسة فيها لا نكاد نلمس لهم أية ملامح خارجية، فالقارئ مثلاً يعرف عن سليم —بطل الرواية– أنه قوي الشخصية له تأثير كبير في الآخرين، ومغامر لا يبالي بالصعاب، كما

يعرف عنه أنه عفيف في حبه، وذو حياء، ويحمل في صدره قلباً كبيراً، كما يعرف عنه أنه حلو الحديث، يحزن لحزن الآخرين، ويفرح لفرحهم، ولكنه لا يعرف عن شكله شيئاً، كما لا يعرف عن ملامحه الخارجية شيئاً ، لا يعرف ما إذا كان يميل إلى البياض أو إلى السواد، وما إذا كان طويلاً أو قصيراً، ولا يعرف كيف شكل عينيه وأنفه وشفتيه، كما عودنا أصحاب الروايات الواقعية الذين يستغرقون في وصف الملامح الخارجية لأبطال قصصهم ورواياتهم وصفاً دقيقاً حتى إننا لنكاد نراهم، ولا يعرف القارئ عن بطلة القصة عصمت إلا عفتها وجمالها الروحي وأخلاقها القويمة، لأن هدف الكاتب هنا هو الكشف عن السلوك البشري، ولا تهم بعد ذلك أشكال هؤلاء البشر وملامحهم. وهذه من خصائص الأدب الإسلامي في القصص والروايات، ويتفق مع الأهداف التي يرنو إليها الروائي الإسلامي في روايته.

وللرسائل دور مهم في هذه الرواية، حيث استخدمها المؤلف لتوضيح وتبرير كثيرٍ من الأحداث، وهي عادة رسائل طويلة تشرح الأمور وتثير الحماس، وخاصة رسالة ناصر –الشاب النشط في الحركة السرية الداعية إلى قيام باكستان الذي التقى به سليم في أيامه الأولى في الجامعة– وهذه الرسالة استغرقت أربع صفحات من الرواية، وكذلك الرسائل التي تبادلها سليم مع حبيبته عصمت، والتي رغم كونها بين حبيبين فقد امتلأت بالحديث عن أحزان المسلمين وبمصائب الأمة الإسلامية في تلك النواحي. وفي نهاية الرواية نجد رسالة طويلة جداً وجهها بطل القصة سليم إلى المسلمين ينبههم فيها إلى الخطر الذي يواجهه المسلمون في تلك الحقبة العصيبة من التاريخ، وإلى ضرورة توحيد القوى لمواجهة العدو الغاشم في هذه المرحلة من تاريخ الأمة، وذلك في حدود ثلاثين صفحة من الرواية، والتي طبعها فيما بعد في كتيب، ووزعه على الناس، وهذه الرسالة تعتبر جزءاً أساسياً من القسم الرابع في الرواية، بل من الرواية كلها.

ومن خلال السرد تطرق الكاتب إلى الأحداث السياسية وبيان موقف القادة السياسيين الذين كان لهم تأثير كبير ومباشر على خط سير الأحداث في المنطقة، وقد ساعدنا هذا السرد كثيراً على فهم الواقع الذي دارت حوله أحداث الرواية. فالرسائل والسرد الشارح أديا إلى الوضوح الذي هو من أهم خصائص الأدب الإسلامي على العموم، كما لم يفت الكاتب أن ينتقد الأدباء اليساريين أو التقدميين —وهم أبعد الناس عن التقدم– ويتساءل: أين كانوا حين كان المسلمون يُقتلون جماعات وأفراداً، وبصورة وحشية لا مثيل لها في التاريخ؟ أين كان هؤلاء حين كان السيخ ينتهكون أعراض المسلمين؟ لماذا يزعجهم جوع العمال الآن؟ .[١٧] وانتقد دفاعهم عن ظلم وطغيان الهند حين قالوا عن قتل الهندوس والسيخ للمسلمين بأنها كانت حوادث فردية حدثت مثلها للهندوس والسيخ في باكستان، مع أن الأمر لم يكن كذلك بشهادة الإنجليز أنفسهم، وانتقد الشعراء والأدباء الرومانسيين الذين غضوا الطرف عن

الواقع الخطير، وانشغلوا بذواتهم، وتغنوا بها في وقت كانت أمتهم بحاجة إليهم، وشبههم بشعراء المسلمين في دلهي حين كانوا مشغولين بالغزل وقت دخول الإنجليز عقر دارهم.

يؤخذ على المؤلف في هذه الرواية أنه ينسب إلى بعض الشخصيات أفكاراً ومعاني أكبر من حجم هذه الشخصيات بكثير، فهو مثلاً في القسم الأول من الرواية وفي صدد الحديث عن الشجار الذي نشب بين سليم وابن عمه وأطفال آخرين وبين موهن سنغ —وهو طفل سيخي بذيء اللسان كان يستعين بخدم أبيه في سحق من يتجرأ على الوقوف أمامه– يصف المؤلف هذه المشاجرة التي كانت بين أطفال صغار وكأنها معركة كبيرة، حيث يقول في نهايتها: "إن العدو ترك ميدان المعركة ولاذ بالفرار"،[١٨] وهناك أمثلة أخرى لمثل هذه العبارات التي تصور الأحداث بشكل مبالغ فيه، كما نلاحظ تفوق سليم غير العادي ومنذ طفولته على من يكبره سناً، والظروف التي يوردها المؤلف دائماً تخدمه دون غيره. ففي المشهد الذي يكاد فيه مهندر سنغ —وهو طفل سيخي– أن يغرق في النهر لا ينقذه غير سليم،[١٩] رغم وجود أطفال آخرين كثيرين بالقرب منه في ذلك الوقت، وبعضهم كان أكبر من سليم، وحتى القرارات التي يتخذها سليم منذ أن كان صغيراً دائماً يثبت الزمن وتطور الأحداث صحتها وصوابها. وبعد أن يكبر سليم نجد شخصيته مسيطرة على الطلاب الآخرين، بل على الجماهير أيضاً، ففي إحدى المظاهرات استطاع سليم فور وصوله إلى مكان المظاهرة أن يقلب الكفة لصالح المطالبين بدولة مستقلة للمسلمين بعد أن كانت لصالح مولوي مزيف مناصر للهند، حتى اضطر هذا المولوي إلى الفرار.[٢٠]

لا شك أن هيمنة شخصية سليم بهذه الطريقة منذ طفولته وحتى النهاية تبعد الرواية من الواقعية؛ لأن الواقع ليس نجاحاً مستمراً، وليس انتصاراً دائماً، ومما يبعد الرواية عن الواقعية تحول سليم المفاجئ من شاعر رومانسي حالم إلى ثوري حاد، ليس هذا فحسب بل معرفته بفنون القتال، واستخدامه للأسلحة التي لم يسمع عنها من قبل، وهو القادم من القرية. حقاً إن كثيراً من أبطال العالم الذين غيروا واقعهم كانوا رومانسيين في بداية حياتهم، فالأحلام هي التي تصنع الواقع العظيم في أحيان كثيرة، ولكن المؤلف لم يذكر لنا شيئاً عن حصول سليم على أي نوع من التدريب، فكيف استطاع بمساعدة أفراد قليلين لا خبرة لهم في فنون القتال أن يهزم جماعات السيخ المسلحة مرات كثيرة، وبمهارة تفوق مهارة أبطال الأفلام الهندية والأمريكية! ربما استطاعت الرواية بهذه الطريقة أن تشفي بعض غليلنا، ولكنها خسرت جزءاً من واقعيتها، الأمر الذي سكب ظلالاً من الشك على صدقيتها.

على الرغم من ذلك كله فإن رواية "خاك أور خون" تعتبر من أعظم الروايات الواقعية ذات النغمة الإصلاحية في الأدب الأردي، ومن أصدقها تعبيراً عن واقع تلك البقعة وتلك الحقبة من حياة المسلمين، وخاصةً فيما يتعلق بالهجرة الكبرى وما صاحبها من مشكلات ومصاعب، وتأثيرها العميق في النفوس حتى يومنا هذا، وهذه الرواية بحق من أعظم الروايات الإسلامية التي تحققت فيها الواقعية

الإسلامية التي لا تكتفي بعرض الواقع كما هو، بل تقدم حلاً وعلاجاً لذلك الواقع المرير وللمشاكل التي تجسم فيه، وهذه أيضاً من خصائص الرواية الإسلامية.

**الخاتمة:**

وهكذا ظل أسلوب الكتاب الإسلاميين –ونسيم حجازي واحد منهم– يتطور فيجمع محاسن كثيرة،[٢١] وأخذ يضاهي أعظم الأعمال الأدبية، بل تجاوزها على حد قول بعض النقاد الإسلاميين مثل محمد عادل الهاشمي حيث يقول: "وكان عليّ أن أمر خلال البحث بما يسمى بالأدب العالمي، فإذا بي – وأتحدث بكل ثقة– أجد أن الشعراء والأدباء الإسلاميين بمبادراتهم الذاتية قد فاقوا في إنتاجهم آفاقاً ومضامين كثيراً من الذين أشاد بذكرهم جيل المتغربين من الأدباء عندنا".[٢٢] وهذا الوصف ينطبق إلى حد بعيد على كاتبنا الكبير نسيم حجازي.

كان هذا نموذجاً من روايات نسيم حجازي الكاتب الروائي الباكستاني العظيم، ولو قرأنا رواياته الأخرى وأغلبها تاريخية لظهرت لنا بشكل جلي إسهاماته في صبغ هذا النوع الأدبي بالصبغة الإسلامية الواضحة.

**هوامش البحث:**

[١] انظر: قطب، محمد، **منهج الفن الإسلامي**، (بيروت والقاهرة: دار الشروق، ط٦، ١٩٨٣م)، ص٦.

[٢] انظر: جرار، مأمون فريز، "**الأدب الإسلامي: إلى أين يمضي؟**"، مقال منشور في الشبكة الدولية (الإنترنت).

[٣] انظر: بحث لكاتب المقال، "**القصة الاجتماعية في مصر وباكستان في العقد السادس من القرن العشرين، دراسة مقارنة بين الأدبين العربي والأردي**" نال به درجة الدكتوراة في الأدب المقارن من كلية اللغة العربية بالجامعة الإسلامية العالمية في إسلام أباد عام ٢٠٠٠م، ص ٦٣.

[٤] سورة النور، الآية ١٩.

[٥] انظر: شاه، سيد يونس، "**باكستاني أدب" مقال ضمن كتاب "باكستان مين أردو**"، ترتيب: محمد طاهر فاروقي وخاطر غزنوي، يونيورستي بك ايجنسي، بيشاور، ص ١٩٠-١٩١.

[٦] انظر: حسين، سيد إعجاز، "**مختصر تاريخ أدب أردو**"، أردو أكاديمي، ط٣، سندھ، ١٩٧١م، ص ٣٥.

[٧] انظر: خاتون، طيبة، "**أردو مين أدبي نثر كي تاريخ**"، (١٩٨٩م)، ص١٧٢.

[٨] انظر: حسين، سيد إعجاز، "**مختصر تاريخ أدب أردو**"، ص ٣٢٩.

[٩] انظر: غزنوي، خاطر، "**جديد أردو أدب**" سنك ميل ببلي كيشنز، ط١، (لاهور:١٩٨٥م)، ص١٠.

[١٠] Pakistan: Old Country/New Nation. By: Ian Stephens, Pelican Book, Second Edition, Britain,١٩٦٤, P. ٢٢١-٢٢٢.

[١١] انظر: عادل، رمضان، "**نسيم حجازي أبني عهد كا ايك عظيم انقلابي ناول نكار**" مقال منشور في مجلة **كاروان أدب**، رابطة الأدب الإسلامي العالمية، المجلد (٥)، ط٢، عدد: يوليو- سبتمبر ١٩٨٨م، ص ٣٢.

[١٢] انظر: إبراهيم، سمير عبد الحميد، **"الاتجاه الإسلامي في الرواية الأردية"**، مقال منشور في **مجلة الفيصل**، العدد (٨١)، شهر يناير ١٩٩٢م، ص ٥٨-٥٩.

[١٣] المقصود بالتقسيم تقسيم شبه القارة إلى الهند وباكستان وقد تزامن ذلك مع استقلالهما عن بريطانيا.

[١٤] انظر: المرجع السابق نفسه، ص ٥٩.

[١٥] وباكستان كلمة فارسية معناها الأرض الطاهرة، تتكون من لفظين: باك وتعني الطاهر أو الطاهرة، وستان وتعني الأرض.

[١٦] سورة الأنفال، الآية ٦٠.

[١٧] انظر: حجازي، نسيم، **رواية "خاك أور خون"**، ص ٦٠٦-٦٠٧.

[١٨] انظر: حجازي، نسيم، **رواية "خاك أور خون"**، ص ٤٨-٤٩.

[١٩] انظر: السابق نفسه، ص ١٤٥-١٤٦.

[٢٠] انظر: السابق نفسه، ٢٦٨-٢٦٩.

[٢١] انظر: الندوي، واضح رشيد الحسني، **"أدب الصحوة الإسلامية"**، (القاهرة: دار البشير، ط١، ١٩٨٥م)، ص٣٤.

[٢٢] انظر: الهاشمي، محمد عادل، **في الأدب الإسلامي: تجارب ومواقف**، (دمشق: دار القلم، ط١، ١٩٨٧)، ص١٢.